الحمل على المعنى في تفسير"الجامع لأحكام القرآن "للقرطبي

الدكتورة: فوزية دندوقة
طالبة الدكتوراه: سهام ماصة
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة (الجزائر)

ملخـــص:

يهدف هذا المقال إلى استنباط أثر علة الحمل على المعنى في القرآن الكريم من خلال تفسير "الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، حيث اعتمد شكلا من أشكال علّة الحمل على المعنى وهي تذكير المؤنث، متبعين في ذلك المنهج الاستقرائي التحليلي لمناسبته موضوع البحث.

Abstract:

This essay aims to look for the existence of the implied meaning reason in the holly Quran through the book of "El DJami li Ahkam El Quran" by "El Imem El Qurtobi", in which he took one form of the implied meaning reason which is transforming the feminine into masculine relying on the inductive approach that is suitable to the essay's topic.

لا يخفى على أحد ما للغة من أهمية عظمى،لكونها لغة القرآن الكريم والسّنة المطهرة وكونها جزءا من ديننا، بل لا يمكن أن يقوم الإسلام إلا بها، ولا يصح أن يقرأ المسلم القرآن إلاّ بالعربية،ثم إنّ ارتباط اللّغة العربية بالقرآن الكريم كان سببا في بقائها وانتشارها حتى قيل:لولا القرآن الكريم ما كانت عربية؛ولهذا السبب عني السلف بعلوم اللغة العربية وحثّوا على تعلمها،والنهل من عبابها.

وإذا كان القرآن الكريم مصدر التشريع الأول فقها وأحكاما ومعاملة...فإنّه في الوقت نفسه يعتبر النص الأول للدرس اللّغوي وخاصة التقعيد النحوي والصرفي وجميع نظم الكلام، فهو المعجز بكلامه لغة وبيانا.

ومن المعلوم أنّ النحاة الأوائل قد قسموا الكلم أولاً إلى اسم وفعل وحرف جاء، ثم ذكروا مكتشفين ما للاسم من خصائص عامة ينفرد بها جنسه، ومبينين ما هنالك من خصائص ينفرد بها كل نوع من أنواعه،وكذلك فعلوا في قسم الأفعال والحروف،وانطلاقا من هذا التقسم توصلوا إلى فكرة الأصل والفرع، فوجدوا أنّ الإعراب أصل في الأسماء فرع في الأفعال،وأنّ البناء أصل في الأفعال فرع في الأسماء،وأصل الحروف أن تكون مبنية،فإذا خرج أحد الفروع.

عن أصله قيس بنظيره وشبيهه، أو حمل على المعنى أو اللفظ، وظاهرة الحمل هذه من أهم الظواهر اللّغوية التي عنيت بها اللّغة العربية، فقد شاعت في كلام العرب شعرا ونثرا، ووجد مثلها في القرآن الكريم.

1-**تعريف الحمل**:

أ- لغة: ورد في معجم مقاييس اللغة أن "الحَمْلَ من مَادَة (حَمَلَ) على أنّ جذرَهُ مُكَونٌ من الحَاءِ والمِيمِ واللّامِ أصلٌ واحدٌ يدلُّ عَلى تَقلِيلِ الشَّيء، أَسرَع مَعَانِي هذا الجِذرِ قَفزًا إلى العَقِل هو أنَّ الحَملَ مَا كَانَ فِي بَطنٍ،أَو عَلَى رَأسِ شَجرٍ و احْتَمَلهُ الغَضَبَ وذَلك إذَا أزْعَجَهُ."[1]

ومما جاء بهذا المعنى قول ابن منظور:"الحَملُ مُشْتَقٌّ مِن حَمَلَ الشَيْءَ يَحْمِلُهُ حَمْلًا وحُمْلَانًا فَهُوَ مَحْمُولٌ وَحَمِيلٌ والحَمْلُ:مَا حُمِلَ و الجَمْعُ أحْمَالٌ،وحَمَلَهُ عَلَى الدَّابَةِ يَحْمِلُهُ حَمْلاً،والحُمْلاَنُ:مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الدَّوَابِ فِي الهِبَةِ خَاصَةً."[2]

ولم يخالف الزمخشري سابقيه في تعريفه للحمل إذ قال:"امْرأَةٌ وشَجَرَةٌ ذات حَملٍ.وعَلَى ظَهْرِهِ حَملٌ. وامرأة حَامِلٌ.وحَمَلْتُ الشَّيءَ، وحَمَلَنِيه غيرهُ فاحْتَمَلْتُهُ وَتَحَمَلْتُهُ، وهذِه جِمَالٌ مُحمَلةٌ. وحَامِلَةٌ الشَّيءَ."[3]

ب- اصطلاحا: للحمل تعريفات عدّة منها:

"إعطاء الكلم حكم ما ثبت لغيرها من الكلم المخالفة لها في نوعها، ولكن توجد بينهما متشابهة من بعض الوجوه."[4]

وقد عرّف الحمل في محيط المحيط "بأنّه رد الشّيء إلى نظيره بإلحاق أحدهما إلى الآخر."[5]

وقيل:"الحمل قياس أمر على أمر وتحميل أحدهما على الآخر."[6]

بالإضافة إلى تمام حسان الذي عرّف الحمل بأنّه: "تعدية الأحكام من المقيس عليه إلى المقيس."[7]

إنّ ما نُلاحظُه من هذه التّعريفات هو أنّ كل معاني الحمل اصطلاحا متقاربة.والواضح من خلال ما تقدم أنّ: القياس والحمل مفهومان ضروريان متكاملان لفهم اللغة العربية في بعدها النظامي العام من جهة،وتفهم ما بدا خروجا عن هذا النظام من جهة ثانية.لكن هذا الذي يبدو عدولا عن النظام هو في تقديرنا نظام آخر بمثابة التوسعة للنظام الأول فالنحاة عادة ما يحملون الفروع على الأصول من أجل ضبط قوانين اللّغة ضبطا محكما،ومن هنا فإننا نلاحظ قرب الصّلة بين القياس والحمل[8] ،ونتساءل عن العلاقة بينهما وخاصة وأنّ ابن الأنباري عند تعريفه للقياس قال:"هو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه."[9]

إن ارتباط تعريف القياس بالحمل يجعل المصطلحين متداخلين فيما بينهما، والحقيقة أنّ علماء الأصول حين قاموا بوضع أصول النّحو وتنظير أدلته تحدثوا عن دليل القياس مشيرين إلى معنيين له:

الأول منهما: هو أنّ القياس عملية عقلية يجريها العربي بفطرته أو النحوي بصنعته، وتدعى هذه العملية بالحمل.

الثاني أن القياس هو القواعد النّحوية المسجلة في كتب النحو وأصوله يتعلمها الطالب ليفقه أنظمة لغته،أو يعمل بها المجتهد؛ذلك لسبب هو أنّ الغرض من قواعد النحو أن تكون مقاييس تنطبق على جميع أمثلة الباب الواحد؛فإذا فقهها المرء قاس عليها سائر أمثلة الباب التي يتعلمها،فالقواعد إذن قوانين مسجلة يقوم طالب العلم إلى حملها على غيرها من الأمثلة.[10]

وبالرغم من هذا التوافق بين المفهوم الاصطلاحي للحمل والقياس إلاّ أنّ الدارس يدرك جيّدا مما قاله علماء العربية القدامى وما كتبوه،أنّ ثمة فرقا بيّنا يمتاز به مفهوم القياس عن فكرة الحمل،فيلاحظ أنّهم يستعملونه بكثرة مرادفا للقانون الكلّي أو النظام العام للظاهرة اللّغوية[11] ،ويؤكد هذا ما نصّ عليه الرضي الدين الاستربادي بعبارة موجزة عن القياس في النحو فقال:"والمراد بالقياس أن يكون هناك ضابط كلّي."[12]

ومما يثبت أيضا أنّ القياس قصد به القانون العام ما قاله سيبويه:"هذا باب ما أجري مجرى (ليس) في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثم يصير إلى أصله،وذلك الحرف(ما)تقول:ما عبد الله أخَاكَ،وما زيدٌ منطلقًا،وأمّا بنو تميم فيجرونها مجرى(ما) وهل؛أي لا يعملونها في شيء وهو القياس؛لأنه ليس بفعل،وليس (ما) ك(ليس)ولا يكون فيها إضمار."[13]

نستنتج ممّا سبق أنّ ثمة علاقة بين المعنى الأول للقياس **"القواعد"**وبين المعنى الثاني **"الحمل"** وهو متمثل في النقاط الآتية:

- الأول يقود إلى استخدام الثاني.
- القياس أوسع وأشمل من الحمل.
- القياس أصل والحمل فرع.

ومعناه أنّ الحمل وسيلة أو أداة تحاول أن تجذب ما خرج عن هذه الظاهرة عن طريق إظهار علاقة أو اصطناع رابطة بين الظاهرة الأمر وما انعتق منها.[14]

ولمّا كان القياس قد أخذ حقّه في الحديث عند علماء العربية كان لابدّ من أن نولي الحمل اهتمامنا؛لأنّ كل حمل يتضمن لونا من ألوان العلة،وفهم الحمل يترتب عليه فهم أنواع من العلّة.

ولكن قبل ذلك وجب علينا أن نعرّج على أركان الحمل، وقد ذكرها السيوطي في "**الإقتراح**" وهي:[15]

- الأصل:وهو المقيس عليه أو المحمول عليه.
- الفرع:وهو المقيس أو المحمول.
- العلة:وهي"العلاقة التي رأى المتكلم العادي أو النحوي أنها تربط بين المحمول والمحمول عليه، فقاس أحدهما بالآخر."[16]
- الحكم:ويعني"كل ظاهرة لغوية سواء أكانت صوتية أم صرفية أم نحوية أم دلالية منسوبة إلى مثال أو باب،وقد دأب بعض النحاة على تقسيم الحكم إلى واجب وممنوع وحسن وقبيح وخلاف الأولى وجائز على السواء."[17]

وحتى يتضح الأمر أكثر نضرب مثالاً على الحمل ليتبين المقصود بأركانه الأربعة:

يرى النّحاة أنّ نائب الفاعل يحمل على الفاعل في علة الإسناد في كون حكمه الرفع.[18]فلما قالوا بعلة الإسناد قصدوا أنّ نائب الفاعل لم يكن مرفوعا في الأصل أو الوضع"لأنّ معناه يدل على من وقع عليه الفعل فهو مفعول به في المعنى فكان يستحق النصب لكنّه أشبه الفاعل في كونه مسندا إليه ولذا أعطي الرفع كالفاعل لعلة إسناده فالمحمول عليه في هذا المثال هو الفاعل والمحمول هو نائب الفاعل والحكم هو الرفع، والعلة هي الإسناد والذي قام بالحمل هو النحوي.[19]

من المثال يتضح أنّ الحمل كما في النحو شبيه بالقياس الفقهي الذي يعني إلحاق الأمثلة التي لم يرد فيها نصب الأمثلة التي ورد فيها نص شرعي من الكتاب العزيز،والسنة المطهرة إذا كانت من الباب نفسه الذي ينتمي إليه المثال المنصوص عليه ولا ريب في ذلك لأنّ أركان الحمل في النحو منتزعة من أركان القياس في الفقه.[20]

فالحمل إذا يتطلب وجود شيئيين يقوم على أساس المناسبة بينهما وهما الحامل والمحمول وهذه المناسبة هي علاقة تشابه معنى أو لفضا نظيرا أو ضدّا لذلك يكون الحمل في العربية كما يقول السيوطي"القياس في العربية على أربعة أقسام"حمل فرع على أصل وحمل أصل على فرع وحمل نظير على نظير وحمل ضدّ على ضدّ...فالنظير إمّا في اللفظ أو في المعنى أو فيهما..."[21]

وإذا وقفنا عند عبارة **"أو في المعنى"**تبيّن أنّ الحمل لايلزم صورة واحده بل له صور عديدة وضعها النحاة القدامى واستخدموها استخداما واسعا حرصا منهم على أن يبنوا للغة العربية قواعد مطردة،وأنظمة مقننة تعين على إيقاف شيوع اللّحن في المجتمع الإسلام ينذكر منها الأصل والفرع والتشابه والغالب و التقاص والجوار والحمل على المعنى وهو موضوع بحثنا.

2. الحمل على المعنى:

"يعدّ المعنى أساس التفاهم في المجتمع الذي يحدث بطريقة واحدة فإذا ماخلا الحديث من المعني أولم يستطع إيصال المفاهيم من عقل لآخر،فإنّه يصبح مجرد مجموعات من الأصوات تقف عند حدّ الآذان البشرية ولا تتعدّاها وبالتالي فإنّ:الوظيفة الأولى للّغة هي نقل الأفكار والمعاني من شخص لآخر، ومن ثمّ فإنّ: العلاقة بين اللّغة ومعناها علاقة وثيقة لا يمكن فصم عراها."[22]

ويقول ابن جني مؤكدا أهمية المعنى سواء بالنسبة للّغوي أو النّحوي:"وكما تعنى العرب بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة والخطب تارة أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها،وتتكلف استمرارها،فإنّ المعاني أقوى عندها ألزم عليها أفخم قدرًا."[23]

وفي موضع آخر يقول:"ويدلّك على تمكن المعنى في أنفسهم وتقدمه للفظ عندهم تقديمهم لحرف المعنى في أول الكلمة،وذلك لقوة العناية به فقدموا دليله ليكون ذلك أمارة لتمكنه عندهم...أفلا ترى إلى حروف المعاني:كيف بابها التقدم، وإلى حروف الإلحاق والصناعة كيف بابها التأخر لو لم يعرف سبق المعنى عندهم، وعلوه في تصورهم إلّا بتقدم دليله،وتأخر نقيضه،لكان معنيا من غيره كافيا."[24]

إنّ هذا الذي ذكرناه عن المعنى وأهميته نجده أيضا عند محمد الخضر حسين في حديثه عن الحاجة إلى القياس في اللّغة حين قال:"ولو صحّ أن يضع الواضع لكل معنى لفظا يختص به لكان الحرج الذي تقع فيه اللّغة، أن تضيف المجلدات الضخمة عن تدوينها،ويتعذر على البشر حفظ ما يكفي على اختلاف وتباين وجوهها،فالقياس طريق يسهل به القيام على اللّغة،ووسيلة تمكّن الإنسان من النطق بآلاف من الكلم والجمل دون أن تقرع سمعه من قبل أو يحتاج في الوثوق من صحة عربيتها إلى مطالعة كتب اللّغة أو الدواوين لمنثور العرب ومنظومها."[25]

أي أنّ ارتباط الحمل بالمعنى ينتج عنه وصف الظواهر اللّغوية،وقد عبّر عنه إمام النحاة بمصطلحات عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله في مواضع مختلفة من الكتاب (أنزلوه

منزلة كذا[26]) أو(ألحق بكذا...[27]) ويقول:"وأمّا الحق والباطل فيكونان معرفة بالألف واللام ونكرة؛لأنّهما لم ينزلا منزلة ما لم يتمكن من المصادر كسبحان الله ولسَعديك،ولكنّهم أنزلوها منزلة الظنّ،وكذلك اليقين لأنّك تحقق به كما تفعل ذلك بالحقّ.فأنزل ما ذكرنا غير هذا بمنزلة عمرَكَ الله وقِعدَك الله."[28]

وجاء في المقتضب في باب"ما يحمل على المعنى،وحمله على اللّفظ أجود" قول المبرد:"اعلم أنّ الشيء لا يجوز أن يحمل على المعنى إلاّ بعد استغناء اللّفظ،وذلك قولك:ما جاءني غير زيدٌ وعمرٌ و حمل (عمر)على الموضع؛لانّ معنى قوله(غير زيد) إنّما هو:إلاّ زيدٌ،فحمل (عمرو)على هذا الموضع.وكذلك قوله ما جاءني من أحد عاقلٌ.رفعت العاقل ولو خفضته كان أحسن. إنّما جاز الرفع لأنّ المعنى:ما جاءني أحد."[29]

ويؤيد هذا الرأي ابن جني في قوله:"رأيت غلبة المعنى للفظ وكون اللّفظ خادما للمعنى مشيّدا به،وإنّما جيء به له ومن أجله،وأمّا غير هذه الطريقة من الحمل على المعنى فأمر مستقرّ ومذهبٌ غير مستنكر."[30]

كما لم يخالف السيوطي سابقيه في كون الحمل على المعنى لا يجوز إلاّ بعد استغناء اللّفظ وتمام الكلام.[31]

معنى هذا كله أنّ النحاة القدامى استخدموا صورا متنوعة في إطار أسلوب "الحمل على المعنى"وقد اعتمدوه كأسلوب من أساليب تأويل النصوص التي لم تطابق القواعد المطّردة،وأهم صور التأويل التي استخدموها جمعها ابن جني في قوله:"اعلم أنّ هذا الشرح غور من العربية بعيد،ومذهب نازح فسيح.قد ورد به القرآن الكريم وفصيح الكلام منثورا ومنظوما؛كتأنيث المذكّر،وتذكّير المؤنث،وتصور معنى الواحد في الجماعة،والجماعة في الواحد،وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول،أصلا كان ذلك اللّفظ أو فرعا."[32]

وسنحاول في عملنا هذا أن نجلي هذا الأسلوب في ظاهرة لغوية هامّة هي التذكير والتّأنيث في القرآن الكريم كون هذا الأخير هو المصدر الأول في وضع القاعدة،ولسان العرب المشترك، جمع الله فيه ألسنة العرب فاحتملها واحتمل وجوه التغيير فيها،فلا تجد نصّا آخر يعادله في المزاوجة بين التذكير والتأنيث والنظم،وخير مثال على ذلك تذكير الفعل والاسم في موطن وتأنيثه في موطن آخر،ونجد هذا الأسلوب في العربية أيضا بحيث "ميّزت بين النّوعين المذكر والمؤنث باللّفظ أو اختصاص اللّفظ والنوع،فجعلت للمؤنث لفظا،سواء أكان المؤنث حقيقيا أو مجازيا،واللّغة تفرّق بين الجنسين في الخطاب بالضمائر وفي الألفاظ بألفاظ تخص الذكور وألفاظ تخص الإناث أو بلاحقة تزاد في الاسم للتأنيث،فمن الضمائر ما يعرف بضمائر الذكور نحو:أنت أنتم،هو،هم،وضمائر الإناث نحو:أنتِ،هي،هنّ، ويوجد نوع

ثالث مشترك بينهما مثل أنا،أنتما،أطلق فيهما لمعاينة المخاطب من يخاطبه،وإن وجد الذكور مع الإناث غلّب ضمير المذكر".[33]

يقول سيبويه:"اعلم أنّ المذكر حقّ عليهم من المؤنث؛ لأنّ المذكر أوّل، وأشدُّ تمكنا وإنّما يخرج التأنيث من التذكير،ألا ترى أنّ الشيء يقع على كل ما أخبر عنه{من قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى } والشيء ذكر،فالتنوين علامة للأم كن عندهم والأخف عليهم،وتركه علامة لما يستثقلون."[34]

وفي الخصائص ورد "أنّ تذكير المؤنث واسع جدا؛لأنّه ردّ فرع إلى أصل،لكن تأنيث المذكر أهب في التناكر والإغراب."[35]

ولما كان المذكر أصل والمؤنث فرع عليه،ارتأينا أن يكون الحديث برد الفرع إلى الأصل لأنّ التحاة اعتبروه أولى من رد الأصل إلى الفرع.مستندين في ذلك على تفسير القرطبي للقرآن الكريم، ومن أمثلة الألفاظ التي ورد ذكرها في تفسيره.

- **لفظة الشفاعة:** يقول الله تعالى بتذكير لفظة شفاعة: ﴿ وَٱتَّقُوا يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾{البقرة:48}.

يقول القرطبي:"وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا﴾ شَفَٰعَة الشفاعة مأخوذة من الشفع، وهما الاثنان تقول كان وترا، فشفعته شفعًا،والشُفعة مِنهُ؛لأنّك تضمّ ملك شريكك إلى ملكك. وقوله تعالى:(ولا يقبل) قرأ ابن كثير وأبو عمرو(تُقبل) بالتاء؛لأنّ الشفاعة مؤنثة، وقرأ الباقون بالياء على التذكير؛لأنّها بمعنى الشفيع."[36] فقد ذكّر الاسم المؤنث لخلو الفعل من علامة التأنيث، حملا على المعنى. ولأنّه يجوز في كلّ مؤنث اللّفظ غير حقيقي التأنيث أن يعامل معاملة المذكر؛لأنّ صيغة التذكير هي الأصل في الكلام فلا تحتاج إلى سبب."[37]

- **لفظة كلمة:** وردت لفظة "كلمة"بالتذكير في قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾{آل عمران 45} علّل القرطبي قوله تعالى:(كلمة) ثم(اسمه) بالتذكير للمعنى؛لأنّ معنى "كلمة " "ولد" والمسيح هو لقب لعيسى عليه السلام،ومعناه الصّديق." [38]

- **لفظة موعظة:** جاءت لفظة موعظة بالتذكير في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى

ٱللَّه وَمَن عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ {البقرة:275} الشاهد (فمن جاءه موعظة) سقطت علامة التأنيث من الفعل؛ "لأنّ تأنيث "الموعظة" غير حقيقي،وهي بمعنى:وعظ وقرأ الحسن (فمن جاءته) بإثبات العلامة."[39] ونجد هذه اللفظة في موضع آخر من القرآن الكريم حين قال تعالى:هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ { آل عمران:138} يعني القرآن، والموعظة هنا من الوعظ أيضا.[40]

- **لفظة رحمة:**قال تعالى: وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾{الأعراف:56} ذكّرت لفظة "رحمة" في الآية والدليل على تذكيرها الوصف المذكر وهو قوله"قريب" والرحمة مؤنثة، يقول القرطبي:"إنّ قوله تعالى(إنّ رحمت الله قريب) ولم يقل قريبة. فيه سبعة أوجه. أولها: أنّ الرحمة والرّحم واحد، وهي بمعنى العفو والغفران، وقال النصر بن شميل: الرّحمة المصدر، والتذكير كقوله تعالى: فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ ﴿٢٧٥﴾{البقرة:275}،وقيل أريد بالرّحمة الإحسان؛ولأنّ مالا يكون تأنيثه حقيقيا جاز تذكيره، وقيل أراد بالرّحمة هنا المطر."[41] وقال أبو عبيدة ذكّر "قريب"على تذكير المكان، أي:مكانا قريبا".[42]

وفي معاني القرآن:" إذا كان قريب في معنى المسافة يذكّر ويؤنث،إذا كان في معنى النسب يؤنث بلا اختلاف بينهم.تقول هذه المرأة قريبتي،أي: ذات قرابتي."[43]

وفي مؤلفه علّل سبب تذكير الصفة والموصوف مؤنث بأن المراد ب: "قريب"القرب والبعد وهما لغتان، حيث قال تعالى: إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ وقريبة،لغتان في القرب والبعد،فإذا صارو إلى النسب قالوا:قريبة منك وبعيدة."[44] وقيل:"قريب"على وزن فعيل وفعيل يستوي فيها المذكر والمؤنث حقيقيا أو غير حقيقي."[45] ونظيره قوله تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾{يس:78}وعلّل الزمخشري تذكير وصف "قريب"الذي اقتضى دلالة تذكير لفظة "رحمة"في الآية،بأربعة أشياء فقال"ذكّر قريب على تأويل الرّحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنّه صفة موصوف محذوف،أي:شيء قريب أو على شبيهه الذي هو بمعنى مفعول النقيض أو لأن الرحمة غير حقيقي".[46]

يستنتج مما سبق أنّ لفظة قريب التي جاءت بعد لفظة رحمة قد ذكّرت؛لأنّ تأنيث الرّحمة تأنيث غير حقيقي ولأنّ صفة قريب على وزن "فعيل" وفعيل يستوي فيها المذكر والمؤنث حقيقيا كان أو غير حقيقي.

- **لفظة الساعة:** قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ﴿١٧﴾ {الشورى:17} في هذه الآية الكريمة قال تعالى "قريب"ولم يقل "قريبة" والساعة لفظ مؤنث؛لأنّ التأنيث غير حقيقي ولأن المقصود كالوقت، والمعنى:لعل البعث أو لعل مجيء الساعة قريب فقريب هنا نعت ينعت به المذكّر والمؤنث والجمع بمعنى ولفظ واحد.[47] وفي موضع آخر قرأ لفظ السّاعة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٣﴾{سبأ:03} بالتذكير،فذكر الفعل "لتأتينكم" وقرأ "ليأتينكم"،والمقصود البعث، لنفي الساعة.[48]

- **لفظ الخصاصة:** لفظ الخصاصة من المؤنثات المجازية، ومعناه وأنّ التأنيث فيها غير حقيقي، والمؤنث المجازي المقصود به اسم مذكر فيحمل عليه في التذكير قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ ﴿٩﴾{الحشر:09} سبق لفظ الخصاصة الفعل "كان" وقد جرد من علامة التأنيث "لكون تأنيث الخصاصة ليس حقيقيا،ولأنّه فصل بين "كان"واسمها بالمجرور والباء للملابسة".[49]

أصل الخصاصة من الاختصاص وهو الانفراد بالحاجة؛أي ولو كان بهم فاقة وحاجة.[50]

إذا فمرد تذكير هذه الكلمة كما يفهم مما تقدم سببين:

الأول: كون تأنيث الخصاصة تأنيث حقيقي.

الثاني: لأنّه فُصل بين "كان"واسمها بالمجرور،والباء للملابسة.

- **لفظة الأنعام:** جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِى ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةً نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾ {النحل:66} اختلف الناس في الضمير "الهاء" على ماذا يعود؟ فقيل هو عائد إلى ما قبله،وهو جمع المؤنث،قيل:لمّا كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكّر ويؤنث فيقال:هو الأنعام وهي الأنعام جاز عود الضمير بالتنكير.[51] الخلاصة أنّ "الأنعام" ذكرت على معنى النعم فحملت على معنى الجمع، والأنعام تذكر وتؤنث.

- **لفظ القسمة:** لفظ القسمة مؤنثة لفظا وقد وردت في القرآن الكريم بالتذكير نحو قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَـٰمَى وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾{النساء:08}.

إنّ الأمر في قوله تعالى(فارزقوهم منه)[52] محمول عند جمهور أهل العلم على الندب من أول الأمر،إن ليس في الصدقات الواجبة غير الزكاة.

أما الضمير (منه) فهو عائد على معنى القسمة، إذ هي بمعنى المال والميراث،كقوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ {يوسف:76}؛أي السقاية؛ لأنّ الصّواع مذكر.[53]

يفهم من هذا أنّ قوله تعالى:(إذا حضر أحد القسمة أولو القربى) ثم قال (فارزقوهم منه) فلأنّه حمل على الإرث يعني الميراث أولاً أو لأنّ القسمة المقسوم في المعنى.[54]

الخـــــاتمة:

في الختام نصل إلى جملة من النتائج أهمها:

- الحمل وسيلة أداة استخدمها العلماء لردّ المسائل الخارجة عن القياس ولوضع قواعد مطردة.
- يتطلب كل حمل نحوي أربعة أركان هي:المحمول عليه، والمحمول، والعلة والحكم.
- للحمل على المعنى صور متنوعة لا تقتصر على تذكير المؤنث أو تأنيث المذكر، فمنها تصور معنى الواحد في الجماعة والجماعة في الواحد...)
- الحمل على المعنى لا يكون إلاّ بعد تمام الكلام؛ لأنّ ما يحمل على اللّفظ أجود.
- المذكر أخف من المؤنث؛ لأن الأصل التذكير لا التأنيث.
- تذكير المؤنث باب واسع جدا، كونه ردّ فرع على أصل.
- النّص القرآني من أهم النّصوص التي اعتمدت المزاوجة بين التّذكير والتأنيث.
- أكثر الألفاظ المؤنثة الواردة بصيغة المذكر في القرآن الكريم:السّاعة، الشفاعة، الرّحمة،الخصاصة...

الهوامش والمراجع والمصادر:

1 ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة(حمل) تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر،1979م، 106/2.

2 ابن منظور: لسان العرب،مادة(حمل)،تح: دار صادر، بيروت،ط1، 1997م.

3 الزمخشري: أساس البلاغة، مادة(حمل)، دار النفاس، دمشق، ط1، 2009م، ص130-131.

4 محمد خضر حسين: القياس في اللغة العربية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1353م، ص27.

5 بطرس البستاني: محيط لمحيط، مادة (حمل)، بيروت، ط1، 1987م، ص50.

6 محمد سمير اللبدي: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، ط2، 1986م، ص67.

7 تمام حسان: الأصول، عالم الكتب، القاهرة، 2000م، ص174.

8 وئام الحيزم: تأويل اللفظ والحمل على المعنى، رسالة دكتوراه، إشراف الأستاذ: محمد صلاح الدين الشريف، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2005م، ص44-45.

9 محمد سالم صالح:أصول النحو دراسة في فكر الأنباري، دار السلام القاهرة ط1، 2006م، ص360.

10 ينظر، خالد بن سليمان بن مهنا الكندي: التعليل النحوي في الدرس اللغوي، دار المسيرة، عمان، ط1، 2007م، 76-77.

11 عبد الفتاح حسن علي البجة: ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية، دار الفكر، عمان، ط1،1998، ص174.

12 الرضي الدين الاستربادي: شرح كافية ابن الحاجب، تح: حسين محمد بن إبراهيم الحفظي، إدارة الثقافة والنشر لجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، ط1، 1993 م 116/1.

13 سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1996، 57/1.

14 ينظر عبد الفتاح حسن علي البجة: ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية، ص176.

15 السيوطي: الاقتراح،تح: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الصفا، القاهرة، 1999م،ص91.

16 خالد بن سليمان بن مهنا الكندي: التعليل النحوي في الدرس اللّغوي، ص78.

17 المرجع نفسه:ص78.

18 ابن الأنباري: الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة، تح: سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية دمشق، 1957م ص105.

19 خالد بن سليمان بن مهنا الكندي: التعليل النحوي في الدرس اللغوي، ص78.

20 المرجع نفسه: ص79.

21 السيوطي: الاقتراح، ص74.
22 عبد الفتاح حسن علي البجة: ظاهرة قياس الحمل في اللغة العربية، ص199.
23 ابن جني: الخصائص، 215/1.
24 المصدر نفسه: 224/1.
25 محمد الخضر حسين: القياس في اللّغة العربية، ص24.
26 سيبويه: الكتاب414/2.
27المصدر نفسه:415/2.
28 المصدر نفسه: 379/1-380.
29 المبرد: المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، 1994م، 281/3.
30 ابن جني: الخصائص، 237/2.
31 السيوطي: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، 86/2.
32 ابن جني: الخصائص، 411/2.
33 محمود عكاشة: الحمل على اللفظ والمعنى في القرآن الكريم، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1 2009م، ص153.
34 سيبويه: الكتاب،22/1.
35 ابن جني: الخصائص، 415/2.
36 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2013م، 76/2.
37 ابن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984 م،486/1.
38 المصدر السابق: 135/5.
39 ابن عطية: المحرر الوجيز،تح: الرحالة الفاروق وآخرون، دار الخير، بيروت، ط2، 2007م، 372/1.
40 ينظر، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 333/5.
41 المصدر نفسه:250/9.
42 أبو عبيدة: مجاز القرآن216/1.
43 الفراء: معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983م،1 /381.
44 المصدر نفسه:381/1.
45 الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 360/3.

46 الزمخشري: الكشاف، 111/2.

47 ينظر، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 453/18.

48 أبي حيان النحوي: البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1993م 248/7.

49 ابن عاشور: التحرير والتنوير، 94/28.

50 ينظر، الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تح: شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1989م، ص167.

51 ينظر، الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1988م، 209/3.

52 ابن عاشور: التحرير والتنوير، 51/4.

53 ينظر، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 85/6.

54 ينظر، ابن سيدا: المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت،81/16.